الفصل الثاني

نظرة القرآن إلى الإنسان والكون والحياة

إن الإنسان والكون والحياة عناصر أساسية في كل فلسفة ونظام ، والنظرة إليها تحدد طابع الفلسفة واتجاهها ، وهي المنطلق لأي فلسفة تربوية ، ولا تستطيع فلسفة التربية إلا أن تستند إلى نظرة فلسفية في الكون والإنسان والحياة[1] .

والإنسان أهم هذه العناصر ، وهو المقصود بالتربية .

أما الحياة فيقصد بها العمر الذي يكون فيه الإنسان حياً على وجه الأرض ، ويخضع فيه للتربية ، ويقوم بفعاليات وأنشطة مختلفة تؤثر على مجرى الأحداث من حوله .

وأما الكون فيقصد به المكونات المختلفة الخاضعة للإنسان ، وكل ما يستفيد منه في حياته ، وما يتأثر بنشاطه وفعالياته .

ويتوقف تحديد أهداف التربية وبلوغ غاياتها على المعرفة الدقيقة لكل من هذه العناصر الثلاثة ، والتنبه إلى خصائصها .

والإنسان الذي يجهل خصائص ذاته لا يحسن التعامل مع غيره ، وإذا لم يدرك حقيقة الكون الذي يعيش فيه قد يؤله بعض أجزائه ، ويجعل نفسه

---

(١) سعيد إسماعيل علي . مرجع سابق ص ٤١ .

عبداً مهاناً لها ، ولا يهتدي إلى سبل الانتفاع بها على أحسن وجه ، وقد يعيش في صراع بينه وبينها . وإذا لم يقف على سر الحياة التي يتمتع بها ، ولم يعلم منشأها ومآلها فإنه يشعر بالحيرة والقلق ، ولا يجد طعم السعادة والطمأنينة .

ولكن من الذي يستطيع أن يعرف الإنسان بهذه العناصر ويدله على وجوه الاستفادة من الكون واغتنام فرصة الحياة فيما يعود عليه بالخير العميم؟

إن الجواب عن هذا السؤال يتضح بالإجابة عن سؤال آخر هو ما سبيل التعرف على جهاز جديد أنتجته إحدى الشركات المختصة بصناعة الأجهزة الإلكترونية؟ وكيف نتوصل إلى استعماله والاستفادة منه على أحسن وجه؟ وكيف يمكننا صيانته والمحافظة عليه وإصلاحه إذا أصيب بشيء من الأعطال؟

لا شك في أن الشركة التي أنتجته هي المختصة بالتعريف بخصائص الجهاز وبيان كيفية استعماله وطرق صيانته ، وهي غالباً ما ترفق أجهزتها المصنعة بكتيب يوضح ذلك كله ، ويبين الأجزاء التي يتألف منها الجهاز وطريقة فكه وتركيبه وسائر ما يتعلق به .

وكذلك الذي يملك التعريف بخصائص الإنسان والكون والحياة هو الخالق المبدع ، الذي ركب في تلك الأشياء خصائصها ، وحدد الغاية من وجودها . وهو لم يترك الإنسان يتخبط في سيره على غير بصيرة ، وإنما رسم له الطريق الذي يسير عليه ، وحدد له المعالم التي يهتدي بها ، حتى يتمكن من القيام بالمهمة التي أنيطت به ، وبلوغ الغاية التي وضعت له . قال الله عز وجل :

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾

[طه : ١٢٣] .

وما أنزلت الكتب السماوية إلا لتحقيق هذا الهدف . وما علينا إلا أن نتدبر آيات القرآن الكريم ، ونرى فيه هذه الخصائص التي تحدد للتربية منطلقها واتجاهها[1] .

أولاً : النظرة إلى الإنسان :

قبل أن نبين خصائص الإنسان في القرآن الكريم فإنا نسلط ضوءاً على نظرة الفلاسفة إليه ، ونشير إلى مكانته في بعض النظم والحضارات ولدى بعض الأمم والشعوب .

١ـ تفرد الإنسان :

الإنسان كائن فذ في هذا الكون : فذ في تكوينه وتركيبه ، وفذ في وظيفته وغاية وجوده ، وفذ في مآله ومصيره . وهو مخلوق لم يوجد مصادفة ولا جزافاً ، ولم يخلق عبثاً ، ولم يترك سدى .

وتميز الإنسان بخصائصه هو الذي جعل « جوليان هكسلي »[2] يتراجع عما قرره « دارون »[3] في التطور وأصل الإنسان ، ويعترف بأن

---

(١) محمد سعيد رمضان البوطي/ منهج الحضارة الإنسانية في القرآن . ـ دمشق : دار الفكر ، ١٩٨٢ ص ٢٠ـ٢١ ، ٣٦ـ٤٠ .

(٢) هكسلي (١٨٢٥ـ١٨٩٥): جوليان هكسلي عالم من أكبر علماء الإنجليز في علم الحياة والحيوان . كتب في نظرية النشوء وعلم الأخلاق [رابوبرت مبادىء الفلسفة ص ٢٢٧ـ٢٢٨] .

(٣) داروين (١٨٠٩ـ١٨٨٢): تشارلس روبرت داروين عالم إنكليزي ، كان أبوه طبيباً فأرسله لدراسة الطب فلم يوفق فيها ، ثم التحق بكلية اللاهوت في كمبردج ، ولم يكمل الدراسة فيها أيضاً . كان يميل إلى جمع نماذج الأحياء منذ صغره ، ثم شغف بدراسة الجيولوجية وعلم الحيوان ، وقال بنظرية التطور بالانتخاب الطبيعي ، ونشر كتابه أصل الأنواع عام ١٨٥٩ وأصل الإنسان عام ١٨٧١ [داروين/ أصل الأنواع ؛ =

الإنسان « حيوان خاص » ، وأن له خصائص تميزه عن أي حيوان آخر ، وها هو يقول :

« لقد تأرجح رأي الإنسان كالخطار (البندول) فيما يتعلق بمركزه بالنسبة لبقية الحيوانات بين إعجابه الشديد أو القليل بنفسه ، تفصل بينه وبين الحيوانات هوة سحيقة جداً ، وحيناً آخر هوة صغيرة جداً .

وبظهور نظرية « دارون » بدأ الخطار يتأرجح عكسياً ، واعتبر الإنسان حيواناً مرة أخرى . . إلا أن الخطار وصل شيئاً فشيئاً إلى أقصى مدى تأرجحه ، وظهر مابدا أنه النتائج المنطقية لفروض « دارون » فالإنسان حيوان كغيره ، ولذلك فإن آراءه في معنى الحياة الإنسانية والمثل العليا لا تستحق بالنسبة لباقي الكائنات تقديراً أكثر من آراء الدودة الشريطية أو بكتريا الباشلس! والبقاء هو المقياس الوحيد للنجاح التطوري . ولذلك فكل الكائنات الحية متساوية القيمة . وليست فكرة التقدم إلا فكرة إنسانية ، ومن المسلم به أن الإنسان في الوقت الحاضر سيد المخلوقات ، ولكن قد تحل محله النملة أو الفأر! »[1] .

« ولم تصغر الهوة هنا بين الإنسان والحيوان نتيجة للمغالاة فيما للحيوانات من صفات الإنسان ، وإنما نتيجة للتقليل مما للإنسان من صفات الإنسانية ، ومع ذلك فقد ظهر منذ عهد قريب اتجاه جديد ، وقد يكون سببه في الغالب مجرد زيادة المعرفة واتساع نطاق التحليل العلمي .

وتبقى الحقيقة وهي أن الخطار يتأرجح ثانية ، وتتسع الهوة بين الإنسان والحيوان مرة أخرى . . وبعد نظرية « دارون » لم يعد الإنسان

= ترجمة إسماعيل مظهر . ـ بيروت مكتبة النهضة ص ٦٢ـ١٠٠] .

(١) جوليان هكسلي/ الإنسان في العالم الحديث ؛ ترجمة حسن خطاب ـ القاهرة : مكتبة النهضة العربية ص ١ـ٢ .

يستطيع تجنب اعتبار نفسه حيواناً ، ولكنه بدأ يرى نفسه حيواناً غريباً جداً ، وفي حالات كثيرة لا مثيل له ، ولا يزال تحليل تفرد الإنسان من الناحية البيولوجية غير تام .

« وأول خواص الإنسان الفذة وأعظمها وضوحاً قدرته على التفكير التصويري . . ولقد كان لهذه الخاصية الأساسية في الإنسان نتائج كثيرة ، وكان من أهمها نمو التقاليد المتزايدة . . ومن أهم نتائج تزايد التقاليد ـ أو إذا شئت من أهم مظاهره الحقيقية ـ ما يقوم به الإنسان من تحسين فيما لديه من عدد وآلات . . وإن التقاليد والعدد لهي الخواص التي هيأت للإنسان مركز السيادة بين سائر الكائنات الحية . وهذه السيادة « البيولوجية » في الوقت الحاضر ـ خاصية أخرى من خواص الإنسان الفذة »[1] .

« وهكذا يضع علم الحياة الإنسان في مركز مماثل لما أنعم به عليه كسيد المخلوقات كما تقول الأديان .

ولقد أدى الكلام والتقاليد والعدد إلى كثير من خواص الإنسان الأخرى التي لا مثيل لها بين المخلوقات الأخرى ، ومعظمها واضح معروف .

والإنسان لا مثيل له كنوع مسيطر ؛ إذ انقسمت كل الأنواع الأخرى المسيطرة إلى مئات وآلاف كثيرة من الأنواع المنفصلة ، وتجمعت في أجناس وفصائل عديدة ومجموعات أكبر . أما الإنسان فقد حافظ على سيادته من غير انقسام ، ولقد تم تنوع سلالات الإنسان في حدود نوع واحد »[2] .

---

(١) المرجع السابق ص ٣ـ٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٦ـ٧ .

« وللإنسان خاصية أخرى بيولوجية ، وهي تفرد تاريخ تطوره . . ونحن الآن في مركز يسمح لنا بتعريف تفرد الإنسان في تطوره ، وإن خاصية الإنسان الجوهرية ككائن مسيطر لهي التفكير المعنوي »[١] .

« يجب ألا يغرب عن بالنا أن الفرق بين الإنسان والحيوان في العقل أعظم بكثير مما نظن عادة . . وكلنا على علم بقوة الغريزة في الحشرات . . ولكنها تبدو عاجزة عن معرفة طرق جديدة ، وليست الثدييات بأفضل من ذلك . . بينما للتفكير عند الإنسان أهمية بيولوجية كبرى حتى عندما تسود العادة والمحاولة والخطأ ، ولابد أن يكون سلوك الحيوان عرفياً ، أي إنه ثابت في حدود ضيقة ، أما الإنسان فقد أصبح في سلوكه حراً نسبياً . . حراً في الأخذ والعطاء على حد سواء . . ولهذه الزيادة في المرونة نتائج أخرى سيكولوجية يتناساها رجال الفلسفة العقلية . . ولقد أدت هذه المرونة مثلاً إلى حقيقة أن الإنسان هو الكائن الحي الوحيد الذي لابد أن يتعرض للصراع النفسي . ومع ذلك فطبقاً للآراء الحديثة توجد (في الإنسان) أجهزة لتقليل النزاع إلى أقصى حد ، وهي التي يعرفها علماء النفس بالكبت والقمع »[٢] .

« وهذه الخواص التي امتاز بها الإنسان والتي يمكن تسميتها « نفسية » وأكثر من « بيولوجية » تنشأ من خاصية أو أكثر من الخواص الثلاث الآتية :

الأولى : قدرته على التفكير الخاص والعام .

الثانية : التوحيد النسبي لعملياته العقلية ، بعكس انقسام العقل والسلوك عند الحيوان .

---

(١) المرجع السابق ص ١٠ ، ١٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٣ـ٢٩ .

الثالثة : وجود الوحدات الاجتماعية مثل القبيلة والأمة والحزب والجماعة الدينية ، وتمسك كل منها بتقاليدها وثقافتها »[١] .

« ولكن لا يكفي هنا أن نحصي بعض أوجه النشاط . وفي الحقيقة إن معظم أوجه النشاط الإنساني وخواصه نتائج ثانوية لخواصه الأصلية ، وكذلك فهي مثلها فذة من الناحية البيولوجية . . وقد يكون لتفرد الإنسان نتائج ثانوية لم تستغل بعد .

وبذلك قد يكون الإنسان فريداً في أحواله أكثر مما نظن الآن »[٢] .

وأيد تفرد الإنسان واختلافه عن غيره من المخلوقات العالم الأمريكي « ا . كريسي موريسون » وها هو يرد على « دارون » ويقول :

« إن القائلين بنظرية التطور لم يكونوا يعلمون شيئاً عن وحدات الوراثة : « الجينات » .

لقد رأينا أن « الجينات » متفق على كونها تنظيمات أصغر من « الميكروسكوبية » للذرات في خلايا الوراثة . بجميع الكائنات الحية ، وهي تحفظ التصميم وسجل السلف والخواص التي لكل شيء حي ، وهي تتحكم تفصيلاً في الجذور والجذع والورق والزهر والثمر لكل نبات ، تماماً كما تقرر الشكل والقشر والشعر والأجنحة لكل حيوان بما فيه الإنسان »[٣] .

« ويلاحظ أن جميع الكائنات الحية منفصل بعضها عن بعض بهوات

---

(١) المرجع السابق ص ٣٢ .

(٢) جوليان هكسلي/ الإنسان في العالم الحديث ؛ ترجمة حسن خطاب ـ القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ص ٣٤ـ٣٦ .

(٣) كريسي موريسون/ العلم يدعو للإيمان ؛ ترجمة محمود صالح الفلكي ـ مكتبة النهضة المصرية ص ١٤٨ـ١٤٩ .

obeikandl.com

كثيفة لا يمكن عبورها ، حتى إن الحيوانات المتقاربة ينفصل بعضها عن بعض كذلك .

والإنسان حيوان من رتبة الطليعة ، وتكوينه يشبه فصائل « السيميا » : (الأورانجتان والغوريلا والشمبانزي) ولكن هذا الشبه الهيكلي ليس بالضرورة برهاناً على أننا من نسل أسلاف سيميائية ، أو أن تلك القرود هي ذرية منحطة للإنسان . ولا يستطيع أحد أن يزعم أن سمك القد Cod قد تطور من سمك الحساس Haddock وإن يكن كلاهما يسكن المياه نفسها ويأكل الطعام نفسه ، ولهما عظام تكاد تكون متشابهة .

إن ارتقاء الإنسان الحيواني إلى درجة كائن مفكر شاعر بوجوده هو خطوة أعظم من أن تتم عن طريق التطور المادي ودون قصد ابتداعي .

لقد بلغنا من التقدم درجة تكفي لأن نوقن بأن الله قد منح الإنسان قبساً من نوره ، ولا يزال الإنسان في طفولته من وجهة الخلق ، وقد بدأ يشعر بوجود ما يسميه « بالروح » ، وهو يرقى في بطء ليدرك هذه الهبة ، ويشعر بغريزته بأنها خالدة .

وإذا صح هذا التعليل ـ ويبدو أن المنطق الذي يسنده لا يمكن دحضه ـ فإن هذه الكرة الأرضية الصغيرة التي لنا ـ وربما غيرها كذلك ـ تكسب أهمية لم يحلم بها أحد من قبل ؛ فعلى قدر ما نعلم قد تولد عن عالمنا الصغير هنا أول جهاز مادي أضيف إليه قبس من نور الله وهذا يرفع الإنسان من مرتبة الغريزة الحيوانية إلى درجة القدرة على التفكير التي يمكن بها الآن أن يدرك عظمة الكون في اشتباكاته ، ويشعر شعوراً غامضاً بعظمة الله ماثلة في خلقه »[1] .

---

(١) المصدر السابق ص ١٤٤ ، ١٨٩ـ١٩٠ .

« إن أي ذرة أو جزيء لم يكن لها فكر قط ، وأي اتحاد للعناصر لم يتولد عنه رأي أبداً ، وأي قانون طبيعي لم يستطع بناء كاتدرائية ، ولكن كائنات حية معينة قد خلقت تبعاً لحوافز معينة للحياة ، وهذه الكائنات تنتظم شيئاً تطيعه جزئيات المادة بدورها ، ونتيجة هذا أو ذاك كل ما نراه من عجائب العالم . فما هو هذا الكائن الحي؟ هل هو عبارة عن ذرات وجزيئات؟ أجل ، وماذا أيضاً؟ شيء غير ملموس ، أعلى بكثير من المادة لدرجة أنه يسيطر على كل شيء ، ومختلف جداً عن كل ما هو مادي مما صنع منه العالم ، لدرجة أنه لا يمكن رؤيته ولا وزنه ولا قياسه ، وهو ـ فيما نعلم ـ ليست له قوانين تحكمه .

إن روح الإنسان هي سيدة مصيره ، ولكنها تشعر بصلتها بالمصدر الأعلى لوجودها ، وقد أوجدت للإنسان قانوناً للأخلاق لا يملكه أي حيوان آخر ، ولا يحتاج إليه ، فإذا سمى أحد ذلك الكيان بأنه فضلة لتكوينات المادة لا لشيء سوى أنه لا يعرف كنهه بأنبوبة الاختبار ، فهو إنما يزعم زعماً لا يقوم عليه برهان . إنه شيء موجود يظهر نفسه بأعماله وتضحيته وسيطرته على المادة ، وبالأخص بقدرته على رفع الإنسان المادي من ضعف البشر وخطئهم إلى الانسجام مع إرادة الله . هذه هي خلاصة القصد الرباني ، وفيها تفسير للاشتياق الكامن في نفس الإنسان للاتصال بأشياء أعلى من نفسه ، وفيها كشف عن أساس حافزه الديني »[1] .

وتفرد الإنسان في هذا الكون بطبيعته وتركيبه ، وفي وظيفته وغاية وجوده ، وفي مآله ومصيره هو الذي يقرره القرآن الكريم في آيات عديدة .

---

(١) المصدر السابق . ص ٢٠٣ـ٢٠٤ .

فهو يبين أن الإنسان خلق خلقة فذة خاصة مقصودة ، وجعلت لوجوده غاية ، وعينت له وظيفة ، وأنه مبتلى بالحياة مختبر فيها ، محاسب في النهاية على سلوكه ، وهذا السلوك هو الذي يقرر جزاءه ومصيره . ولعل مما يشير إلى ذلك قول الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار : ٦-٨] .

٢ـ تعقيد كيان الإنسان :

والإنسان كائن معقد شديد التعقيد ، سواء في تركيبه العضوي أو تركيبه العقلي والروحي ، كما هو معقد في أوجه نشاطه المختلفة . وهذا التعقيد لا يبدو في كيان الإنسان فحسب ، بل إنه يتجلى في كل خلية من خلاياه ، وهذا ما جعله لا يزال سراً غامضاً حتى الآن . يقول الدكتور « الكسيس كاريل » :

« وواقع الأمر أن جهلنا مطبق ، فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب ، لأن هناك مناطق غير محددة في دنيانا الباطنة مازالت غير معروفة ، فنحن لا نعرف حتى الآن الإجابة عن أسئلة كثيرة مثل :

كيف تتحد جزيئات المواد الكيماوية لكي تكون المركب والأعضاء المؤقتة للخلية؟ كيف تقرر « الجينات »(ناقلات الوراثة) الموجودة في نواة البويضة الملقحة صفات الفرد المشتقة من هذه البويضة؟ كيف تنتظم الخلايا في جماعات من تلقاء أنفسها مثل الأنسجة والأعضاء؟ فهي كالنمل والنحل تعرف مقدماً الدور الذي قدر لها أن تلعبه في حياة المجموع ، وتساعدها العمليات الميكانيكية الخفية على بناء جسم بسيط ومعقد في الوقت ذاته . .

ما هي طبيعة تكويننا النفساني والفسيولوجي؟ إننا نعرف أننا مركب من الأنسجة والأعضاء والسوائل والشعور ، ولكن العلاقات بين الشعور والمخ مازالت لغزاً .

إننا مازلنا بحاجة إلى معلومات كاملة تقريباً عن فسيولوجية الخلايا العصبية . . إلى أي مدى تؤثر الإرادة في الجسم؟ كيف يتأثر العقل بحالة الأعضاء؟ على أي وجه تستطيع الخصائص العضوية والعقلية التي يرثها كل فرد أن تتغير بوساطة الحياة والمواد الكيماوية الموجودة في الطعام والمناخ والنظم النفسية والأدبية »[1]؟

وهذا التعقيد في تركيب الكائن الإنساني وفي وظائفه وأوجه نشاطه هو الذي يتسق مع ضخامة وظيفته الأساسية في خلافة الأرض ومع نشأته من الطين والنفخة من روح الله . ولعل هذا هو السر في حث الإنسان على دراسة نفسه والبحث في خفاياها : ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾

[الذاريات : ٢١] .

٣ـ الفروق الفردية :

والإنسان كائن تختلف أفراده اختلافاً كبيراً فيما بينها ، بحيث يعتبر كل شخص عالماً مفرداً لا مثيل له بين سائر الأشخاص . يقول د . كاريل :

« إن الفردية جوهرية في الإنسان ، إنها ليست مجرد جانب معين من الجسم ، إذ أنها تنفذ إلى كل كياننا . . وهي تجعل « الذات » حدثاً فريداً في تاريخ العالم . . إنها تطبع الجسم والشعور ، كما تطبع كل مركب في

---

(١) الكسيس كاريل/ الإنسان ذلك المجهول ؛ تعريب شفيق أسعد فريد . ـ ط٢ . ـ بيروت : مؤسسة المعارف ، ١٩٧٧ ص ١٧ـ١٨ .

الكل بطابعها الخاص ، وإن ظلت غير منظورة .

يميز الأفراد كل منهم عن الآخر بسهولة بوساطة تقاطيع وجوههم وإشارتهم وطريقتهم في المشي وصفاتهم العقلية والأدبية الخاصة . ومع أن الزمن يحدث تغيرات كثيرة في مظهر الأفراد ، إلا أنه يمكن دائماً معرفة كل فرد ـ كما أثبت ترتلون منذ أمد بعيد ـ بوساطة أبعاد أجزاء معينة من هيكله . . كذلك فإن خطوط أطراف الأصابع مميزات قاطعة للفرد ، ومن ثم فإن بصمات الأصابع هي التوقيع الحقيقي للإنسان »[1] .

« وعلى كل حال إن تكوين الجلد جانب واحد فقط من فردية الأنسجة . . وقد تظهر فردية الأنسجة بالطريقة التالية : طعم سطح جرح بقطع من الجلد أخذ بعضها من المريض نفسه ، والبعض الآخر من صديق أو قريب ، فلوحظ بعد أيام قليلة أن الجلد الذي أخذ من المريض نفسه قد تماسك مع الجرح وبدأ ينمو ، في حين أن الجلد الذي أخذ من الأشخاص الآخرين أخذ في التراخي والانكماش ، وسرعان ما عاش الأول ومات الثاني .

إن القاعدة أن أنسجة أي شخص ترفض قبول أنسجة شخص آخر . . إذ من الواضح أن الأخلاط تكتشف في الأنسجة الغريبة اختلافات تركيبية معينة لا يمكن اكتشافها بأي اختبار آخر . . إن الخلايا محددة بالنسبة للأشخاص الذين تتبعهم . . ولقد حالت هذه الخاصية حتى الآن دون التوسع في تطعيم أو ترقيع الأعضاء لأغراض علاجية »[2] .

« فمن المحتمل أنه لم يوجد فردان بين ملايين الملايين من البشر الذين استوطنوا هذه الأرض كان تركيبهما الكيميائي متماثلاً ، وترتبط

---

(١) المصدر السابق ص ٢٧١ـ٢٧٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٧٢ـ٢٧٣ .

شخصية الأنسجة التي تدخل في تركيب الخلايا والأخلاط بطريقة مازالت غير معروفة حتى الآن ، ومن ثم فإن فرديتنا تتأصل بجذورها في أعماق ذاتنا .

وتطبع الفردية جميع أجزاء الجسم المركبة ، فهي موجودة في العمليات الفسيولوجية كما هي موجودة في التركيب الكيماوي للأخلاط والخلايا ، ولهذا فإن كل شخص يتفاعل بطريقته الخاصة مع أحداث العالم الخارجي : مع الضوضاء والخطر والطعام والبرد وهجمات الميكروبات والفيروسات .

تمتزج الفرديات العقلية والتركيبية والأخلاطية بطريقة غير معروفة ، وتحمل كل منها للأخرى العلاقات نفسها التي تحملها وجوه النشاط الفسيولوجي والعمليات المخية والوظائف العضوية.. إنها تهبنا وحدانيتنا ، وتجعل كل إنسان أن يكون نفسه وليس شخصاً آخر .

كل فرد يدرك أنه فريد ، وهذه الوحدانية حقيقية »[1] .

ولعله مما يشير إلى الفروق الفردية بين الناس على هذا النحو قول الله عز وجل : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾ [الروم : ٢٢] .

هذه الحقائق الأساسية : حقيقة أن الإنسان كائن فذ في هذا الكون ، وأنه كائن معقد شديد التعقيد ، وأن كل فرد من الناس مختلف عن غيره . هذه الحقائق تقتضي منهجاً للتربية ونظاماً للحياة يأخذها بعين الاعتبار ، ويضمن للإنسان أن يصرف وجوه نشاطه كلها وفق طاقاته بحيث لا يسحق ولا يكبت ولا يسرف ولا يفرط ، ولا يدع طاقة تطغى على طاقة ولا وظيفة تطغى على

---

(١) المرجع السابق ص ٢٧٥ـ٢٧٨ .

وظيفة ، ويحفظ لكل فرد فرديته الأصلية مع كونه عضواً في جماعة .

والمنهج الوحيد الذي راعى هذه الاعتبارات كلها هو المنهج الذي وضعه للإنسان خالقه العليم بتكوينه وفطرته والخبير بطاقاته ووظيفته .

فهل اهتدى الناس إلى ذلك المنهج؟

٤ـ تقلب النظرة إلى الإنسان :

لقد تغيرت النظرة إلى الإنسان في أوروبا من اعتباره نداً للآلهة لا يخضع لشيء حيناً ، إلى اعتباره مهاناً ذليلاً حيناً آخر : إذ كان الإنسان نداً للآلهة في الأساطير الإغريقية ، ينازعها السلطة والمعرفة ، وتبطش به وتقسو عليه . فلما جاء العهد الروماني بهت ظل الآلهة ، وأصبح الإنسان يعبد ذاته وشهواته ، ولا يسمح للآلهة بالتدخل في تصريف حياته الأرضية ، ولكنه يسمح لها بالتكهن على ألسنة الكهان ، ويستمتع بمباهج الاحتفالات بمواسمها في طلاقة من كل قيد .

ولما سيطرت النصرانية كما تصورتها الكنيسة على الدولة الرومانية وسم الإنسان بالخطيئة ، ونكس رأسه بالذل . ومع أن النظرة النصرانية تحمل تكريم الله للإنسان ، إلا أن خطيئة آدم ـ كما تصورها الكنيسة ـ قد دمغت الجنس البشري كله بالإثم ، حتى جاء المخلص « المسيح » فكفر عن هذه الخطيئة . ولكن هذا لم يرفع جبين الإنسان ، فقد كان عليه أن يظل في الذل والهوان والتقشف والعذاب طول حياته حتى يلحق بالمخلص وينال الغفران .

واعتبرت ميوله الفطرية رجساً ودنساً ، وعلاقاته الجنسية قذراً ووسخاً ، وشعوره بذاته إثماً وخطيئة . وأدى ذلك إلى الرهبنة ثم إلى رد الفعل عليها .

ولما ثارت أوروبا على الكنيسة وتصوراتها ومفهوماتها الدينية ، حدثت نظرة جديدة للإنسان وللعقل في الإنسان ، وجعل هذا العقل إلهاً في عصر التنوير في منتصف القرن الثامن عشر . واعتبر العالم الخارجي من خلق العقل وصنعه ، ومنح العقل حق السيطرة على كل جوانب الحياة والقطع فيها برأيه ، ومنح الإنسان حرية تامة لا يحدها شيء ، وانتهى عصر تدخل الدين في الحياة .

ثم انتهى عصر التنوير بانتهاء ذلك القرن ، وابتدأ القرن التاسع عشر بضربة قاصمة للعقل والإنسان ؛ إذ جاءت الفلسفة الوضعية تعلن أن المادة هي الإله! فهي التي تنشىء العقل ، وهي التي تطبع في حس الإنسان ما تراه . وبذلك تضاءل العقل وتضاءل معه الإنسان ولم يعد إلهاً ، إنما أصبح مخلوقاً من الطبيعة وعبداً لها .

ثم جاء « دارون » ونشر كتابه « أصل الأنواع » سنة ١٨٥٩ وكتابه « أصل الإنسان » سنة ١٨٧١ ، فأعلن حيوانية الإنسان ؛ وفقد الإنسان كل ما كان التصور الديني قد أسبغه عليه من تكريم وخصوصية ، وكل ما كانت الفلسفة قد خلعته عليه في عصر التنوير من استقلال وسيطرة .

وتمت الضربة القاضية على يدي « فرويد » و « كارل ماركس » فالأول يرد دوافع الإنسان كلها إلى الميول الجنسية ، ويصوره غارقاً في وحل الجنس ؛ فهو يرضع بلذة الجنس ، ويمص إبهامه بتلك اللذة ، ويتبول ويتبرز بلذة الجنس ، ثم يعشق أمه بتلك اللذة ، وكيانه المعنوي كله من دين وأخلاق وتقاليد نابع من حمأة الجنس المسعور! والآخر يرد تطورات التاريخ كلها إلى الاقتصاد ، ويفسر تاريخ البشرية بالبحث عن الطعام ، ويصور الإنسان مخلوقاً سلبياً لا حول له ولا قوة أمام الاقتصاد وأداة الإنتاج ، ويجعل الضرورة القاهرة هي المسيطرة على حياة الإنسان ،

والإنتاج المادي هو الذي يعين للناس وجودهم ومشاعرهم![1] .

ولا نجد نظرة للإنسان أصح وأدق مما في القرآن الكريم .

٥ـ الإنسان في القرآن :

لقد عمد القرآن الكريم إلى تعريف الإنسان على ذاته من أول آيات أنزلت ، وهي :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العلق : ١ـ٢] .

كما إن أوائل الآيات في هذا الكتاب تتحدث عن الناس ، وتقسمهم إلى مؤمنين وكافرين ومنافقين ، وتبين صفات كل صنف منهم ، ثم تبين خلق الله لآدم ومنزلته بين سائر المخلوقات وتفضيله عليها .

ويبصر القرآن الإنسان بحقيقته وخصائصه ومزاياه من خلال أمرين :

أولهما : يتعلق بجسمه ومراحل خلقه ، فأصله من تراب ، وسلالته من ماء مهين ، وهو مع ذلك يخاصم ويعاند ، ويجادل ويكابر . وفي ذلك عدة آيات منها :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٢ـ١٤] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن

---

(١) سيد قطب/ الإسلام ومشكلات الحضارة ، ص ٤٨ـ٥٠ .

﴿يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج : ٥] .

وثانيهما : أن الإنسان هو مخلوق مكرم على سائر المخلوقات ، وقد شرفه الله بالخلافة في الأرض ، ومنحه العقل والقدرة على التعلم والتفكير . وفي ذلك عدة آيات أيضاً :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة ٣٠] .

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص : ٧١-٧٢] .

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء : ٧٠] .

والإنسان عبد مملوك لله ، ناصيته في يده ، ماض فيه حكمه ، خلق من ضعف ونهايته إلى ضعف ، وهو ضعيف أمام شهواته وأهوائه ، وضعيف في جسمه وعقله وإرادته :

﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء : ٢٨] .

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم : ٥٤] .

ولكن الله ـ تبارك وتعالى ـ اختاره لعمارة الأرض وقيام الخلافة الإنسانية فيها ، ومنحه العقل والقدرة على التعلم والتفكير ، وأمده بالطاقة والقوة ، وسخر له ما في السموات والأرض ، وغرس في نفسه حب الذات والتملك ليقوم بتلك المهمة .

ولابد من أخذ هذين الأمرين بعين الاعتبار ليعتدل مزاج الإنسان ، ويستطيع القيام بما كلف به ؛ لأن من عاش لا يرى في ذاته إلا الضعف والهوان فإنه يصبح خانعاً ذليلاً ، ويخضع لطغيان الجبابرة والمستكبرين ،

ويقعد عن القيام بمهامه . أما من عاش وهو لا يرى في ذاته إلا التفضيل والتكريم والمزايا التي خص بها فإنه يطغى ويتجبر ويسعى ليفسد في الأرض ويهلك الحرث والنسل .

وأما من نظر إلى هذين الأمرين معاً فإنه لا يخنع للذل والهوان إن أحس بالضعف ، ولا يطغى أو يتجبر إن أحس بالقوة ، ولكنه يعمل في الحالتين بالتعاون مع غيره لخير البشرية . ومهمة التربية الأساسية هي استئصال نزعة الذل والطغيان ، والقضاء على بؤرة الشر والفساد[1] .

٦ـ خصائص الإنسان :

لقد جبل الله ـ سبحانه وتعالى ـ الإنسان على خصائص معينة ، ومن واجب المربين أن يتعرفوا عليها ليتمكنوا من توجيهه وإصلاحه ، منها :

أ) رغبة الإنسان في إنجاز مهامه بسرعة ، وميله إلى العجلة في شؤونه كلها :

﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء : ٣٧] .

ولفرط عجلته فإنه قد يظن الشيء خيراً له وهو شر له ، ويطلب تحقيق ما فيه ضرر به وهو يحسب أنه نافع له :

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾ [الإسراء : ١١] .

ب) خطأ الإنسان في تقدير الأمور ، فقد يكره ما ينفعه ويحب مايضره :

﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

---

(١) ماجد عرسان الكيلاني/ فلسفة التربية الإسلامية ط٢ مكة المكرمة : مكتبة هادي ، ١٩٨٨ـ ص ١٨١ .

ج) حب الإنسان للمال وحرصه على جمع الثروة :

﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾

[الفجر : ١٩ـ٢٠] .

د) بخل الإنسان وامتناعه عن مشاركة الآخرين فيما يصيبه من خير :

﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴾ [النساء : ١٢٨] .

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء : ١٠٠] .

ولذلك فإن من يعمل على تزكيه نفسه وتعويدها الكرم والإيثار يكون من المفلحين :

﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩] .

هـ) بطر الإنسان وفرحه حين النعمة ، ويأسه وحزنه حين الشدة :

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق : ٦ـ٧] .

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴾

[الإسراء : ٨٣] .

والإنسان يقبل على الله ويتضرع إليه حين يصيبه المكروه ، ويعرض عنه ويكفر به ويحيك الشر حين يكشف الضر عنه : ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ ﴾ [يونس : ٢١] .

﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى : ٢٧] .

﴿ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

[المؤمنون : ٧٥] .

ويظن الإنسان أن زيادة الإنعام عليه تدل على تكريم الله له ورضاه عنه ، وأن التضييق عليه في الرزق يدل على إهانة الله له ، والحقيقة أن كلاً من بسط الرزق وتقديره ابتلاء له ، فالله يبتليه بالعطاء حيناً وبالحرمان حيناً آخر :

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴾ [الفجر : ١٥ـ١٦] .

وبعض الناس يثبتون على الدين في حال الرزق الكثير والنعمة الوفيرة ، وينقلبون كافرين في حال الشدة والعسر :

﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾ [الشورى : ٤٨] .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج : ١١] .

ولا يستثنى من ذلك إلا المؤمنون الذين يعملون بشرائع الإسلام :

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ [المعارج : ١٩ـ٢٣] .

و) كفر أكثر الناس :

فالناس يولدون على الفطرة ، ولديهم القابلية للتمسك بالدين :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٠] .

ولكن أكثر الناس ينحرفون عن الفطرة ويكفرون :

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

[النحل : ٨٣] .

﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء : ٨٩] .

وكثير ممن يدعي الإيمان يكون إيمانهم سطحياً يشوبه الكفر والنفاق والشرك الخفي ، لأنهم يراؤون بأعمالهم ، ويتعلقون بغير الأسباب المشروعة :

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٦] .

ولعل السبب في هذا غفلة الناس عن آيات الله ، سواء منها المقروءة في كتابه العزيز أو المنظورة في هذا الكون الكبير :

﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ [يونس : ٩٢] .

ز) جحود الإنسان وعدم شكره :

يتصف أكثر الناس بالجحود لنعمة الله ، وعدم القيام بشكره :

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات : ٦] .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [غافر : ٦١] .

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣] .

ح) جهل الإنسان :

يغلب الجهل على الناس ، والعلماء والمفكرون منهم قلة :

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١١١] .

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١] .

والعلماء تقتصر علومهم على الدنيا ومتاعها وعلى ظاهر الأشياء

وصفاتها الخارجية ، ولا تصل إلى كنهها وحقيقتها :

﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم : ٧] .

ومع ذلك فإن بعض الناس يجادلون بغير علم ، ويرفضون الدعوة للإيمان والاستجابة للحق :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [لقمان : ٢٠] .

ط) اندفاع الإنسان إلى الشر :

والإنسان لجهله وضعفه وعجلته كثيراً ما يندفع إلى الشر والفساد :

﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ﴾ [يوسف : ٥٣] .

ي) ضلال الإنسان وفسقه ونفاقه :

وأكثر الناس يتبعون الظنون والأوهام ، ولا يتحرون الحقيقة ولا يبحثون عنها :

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [يونس : ٣٦] .

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم : ٢٣] .

ولهذا فإن أكثر الناس ضالون مضلون :

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الصافات : ٧١] .

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٦] .

وبعض الناس يحرص على الضلالة والوسائل المؤدية إليها ، وكأنه اشتراها بماله :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان : ٦] .

وكثير من الناس فاسقون عاصون لله ، ينقضون العهود والمواثيق :

﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة : ٤٩] .

﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴾

[الأعراف : ١٠٢] .

ومنهم من يتظاهر بالصفات الحسنة ، ويقول المعسول من الكلام وهو خبيث النفس سيىء الطوية قبيح الفعال :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [البقرة : ٢٠٤ـ٢٠٦] .

ويوجد في كل البلدان مجرمون كبار ومتآمرون خبثاء ، يفسدون المجتمع ويضلون الناس . ولكن مكرهم يعود عليهم ، وكيدهم ينزل بهم :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٣] .

والمترفون من الناس هم أشد كفراً وفجوراً :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾

[سبأ : ٣٤] .

وهم يتبعون آباءهم تبعية عمياء ، ولا يتقبلون أي دعوة للإصلاح . ولا يستجيبون للرسل والدعاة : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٣] .

وبعض الناس يحرصون على مرضاه الله ، ويضحون بأموالهم وأنفسهم في سبيله : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [البقرة : ٢٠٧] .

ك) اختلاف الناس في أحوالهم ومعاشهم :

خلق الله الناس مؤمنين موحدين ، فانحرف قسم منهم ، وتفرقوا إلى ملل وطوائف : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ [يونس : ١٩] .

وقد جعل الله الناس على درجات متفاوتة ليخدم بعضهم بعضاً فالأدنى مسخر لمن فوقه ، ولو كانوا جميعاً على مستوى واحد من القدرات والاستعدادات لاتجهوا وجهة واحدة ، ولما وجد من يقوم بالخدمات والأعمال التي لا يرغب فيها الناس . وبهذا الاختلاف يتحقق الابتلاء :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف : ٣٢] .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ ﴾ [الأنعام : ١٦٥] .

وهذا الاختلاف والتفاوت في الدرجات يفرض على التربية أن تصنف المتعلمين حسب قدراتهم واستعداداتهم العقلية والنفسية والجسدية ، وتعد البرامج والطرائق المناسبة لكل منهم . وفي القرآن توجيه إلى العناية بأولي الألباب ـ أي صفوة الأذكياء ـ ونص على أنهم هم الذين يتذكرون ويهتدون من خلال قدراتهم العقلية العالية .

وهذا يشير إلى مبدأين يتعلقان بالتعليم :

الأول : هو أن أولي الألباب ـ أو صفوة الموهوبين حسب لغة التربية الحديثة ـ هم القادرون على تذوق الحقيقة في الأفكار الجديدة ، وهم القادرون على قراءة الآيات المنزلة ومقارنتها بالآيات المنظورة في الآفاق والأنفس .

والثاني : أن أصحاب المستويات الأولى من الذكاء يتعلمون بالقدوة والمحاكاة ، أو ما أسماه المربون المسلمون بالاتباع والتقليد ، ويتبعون أولي الألباب في الاتجاهات التي يتوجهون إليها[1] .

ل) المساواة بين الناس :

ولكن انقسام الناس إلى أمم وشعوب ، وتفضيل بعضهم على بعض في الرزق أو في القوة والذكاء والعلم لا يعني التفاوت في القيمة الإنسانية .

وقد سبق القرآن النظم البشرية جميعها إلى إعلان مبدأ المساواة حين قرر أن أصل البشرية واحد ، وأعلن أن الله خلقهم من نفس واحدة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

والكرامة التي خص بها الأتقياء لا تجعل لهم شيئاً من الحقوق زيادة على غيرهم ، وإنما يجازون عليها في الدار الآخرة ، أما في الدنيا فالبر والفاجر سواء في الحقوق والواجبات العامة[2] .

ولقد طبق النبي ﷺ هذا المبدأ بين أصحابه وجعله واقعاً في حياتهم العملية ، ومن قوله في ذلك :

---

(١) المرجع السابق نفس المكان .

(٢) عمر أحمد عمر/ السنن الإلهية في النفس البشرية ـ دمشق : دار حسان ، ١٩٩٢ ـ ص ٣٣ ـ ٤٤ .

« المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم »[1] .

« الناس مستوون كأسنان المشط »[2] .

٧ـ العلاقة بين الناس :

تقوم علاقة الإنسان مع غيره من الناس في القرآن الكريم على أساس التعاون والعدل والإحسان ؛ وبذلك يحافظ كل إنسان على حقوقه ، ويحقق الغاية من خلقه . قال الله تعالى :

﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾ [المائدة : ٢] .

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] .

ثانياً : النظرة إلى الكون :

يراد بالكون مانراه حولنا من أرض وسماء وشمس وقمر ونجوم وكواكب ، وسائر الأشياء والكائنات عدا الإنسان[3] .

والكون في القرآن شاهد على وجود الخالق المبدع ووحدانيته وقدرته ، وهو مسخر للإنسان كي يستفيد منه في مسيرة الحياة :

فمن تأمل في آفاق الكون يجد فيه مظاهر الحكمة في الإبداع ، ومعاني

---

(١) رواه أبو داود و ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، السيوطي/ الفتح الكبير ـ القاهرة : مطبعة مصطفى البابي الحلبي . ج٣ ص ٢٥٧ .

(٢) رواه الديلمي عن أنس، الفردوس بمأثور الخطاب/ الديلمي ـ رقم ٦٨٨٣ ، ج٤ ، ص٣٠١ .

(٣) منهج الحضارة الإنسانية/ البوطي . ص٩٢ .

التدبير الهادف في العلاقة بين الأشياء ؛ وهما يدلان على وجود الإرادة والقصد ، ووجود الحكيم العليم . والآيات التي تلفت أنظارنا إلى ما في الكون من نظام وحكمة ، وتجعلنا نفكر بما فيه من قصد وهدف كثيرة منها :

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . . ﴾ [يونس : ١٠١] .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [ص : ٢٧] .

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

[الأنبياء : ٣٠ـ٣٣] .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٥ـ٩٧] .

ففي هذه الآيات دعوة عامة وإثارة قوية لاستطلاع آفاق الكون والتعرف على ما فيه من مخلوقات تدل على أنه صادر عن إله قدير وحكيم عليم .

والآيات تشير إلى حقائق علمية اكتشفت في هذا العصر ، وما كان للناس علم بها في العصر الذي أنزل فيه القرآن .

وبعض العلماء يرون في آية : (أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما) ما يتوافق مع النظريات الفلكية في نشوء الكون التي تقول بأنه

كان سديماً شبيهاً بسحابة ضخمة من الغازات ، ثم تشكلت منها النجوم والكواكب ، وما الأرض والشمس والقمر إلا أجرام نشأت من ذلك السديم وانفصلت عنه بعد أن كانت متصلة بعضها ببعض .

ويرون في قوله : (وجعلنا من الماء كل شيء حي) ، ما يدل دلالة واضحة على أن الماء أصل الحياة ، وأنه يدخل في تركيب الكائنات الحية كلها . وهذا ما أثبته العلم الحديث[1] .

ويرى بعض العلماء في قوله تعالى : (وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم) ، ماكشف عنه علم طبقات الأرض من أن للجبال جذوراً عميقة تزيد كثيراً عما يرتفع منها فوق سطح الأرض ، وهي بذلك تمنع الطبقة السطحية من أن تنزلق فوق الطبقة المنصهرة التي تحتها . ولولاها لكانت الأرض ترتج وتضطرب باستمرار بسبب دورانها ، ولما كانت صالحة للحياة . ثم إن هذه الجبال معالم بارزة يهتدي بها المسافرون ، ومن فضل الله على العباد أن جعل فيها فجاجاً تمكنهم من اجتيازها[2] .

والآية تشير إلى أن الليل والنهار يتعاقبان ، ويأخذ أحدهما من الآخر لحكمة ، وهي معرفة عدد السنين والشهور ، والقيام بالعمل في النهار ، ثم الخلود إلى الراحة في الليل ، بما يسمح باستمرار الحياة على تعاقب الفصول .

وتشير أيضاً إلى أن السماء كالسقف للأرض ، وهي محفوظة لا يمكن اجتيازها دون التعرض للشهب المحرقة والأشعة الكونية الفتاكة ، وهي

---

(١) في ظلال القرآن/ سيد قطب ج٤ ، ص ٢٣٧٥ ، ٢٣٧٦ ، معجزة القرآن في وصف الكائنات/ حنفي أحمد . ص ١٧٤-١٧٧ .

(٢) التفسير العلمي للآيات الكونية/ حنفي أحمد ص ٣٨١ .

أيضاً تحفظ الأرض منها . وقد جعل الله النجوم زينة للسماء ، ومعالم لهداية المسافرين في البر والبحر .

وليس غير الله بقادر على أن يهب الحياة للكائنات ، ويجعل الحبوب والبذور تنبت الزروع والأشجار .

وليس هناك واحد من العقلاء ينكر أن الله هو الخالق والمدبر لهذا الكون ، حتى المشركين كانوا يعترفون بهذه الحقيقة :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

[الزخرف : ٩] .

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ !

قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ؟

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ !

قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ؟

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٨٤ـ٨٩] .

والإيمان بالله هو الذي يجعل الإنسان يتلقى تعليماته عن حقيقة نفسه وحقيقة الحياة والكون ، ويستفيد مما أودع فيه من الثروات لتحقيق الخلافة في الأرض على النحو الأفضل .

والأمر الثاني الذي يتجلى في نظرة القرآن إلى الكون هو أنه مسخر للإنسان في أرضه وسمائه ونجومه وكواكبه وحيواناته ونباتاته وترابه وهوائه وأنهاره وبحاره . . وليس هناك أي منطقة في الكون يحظر على الإنسان اكتشافها والاستفادة منها على الوجه المشروع .

وفي ذلك آية : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾

[البقرة : ٢٩] .

وقد استدل الفقهاء بهذه الآية على أن الأصل في الأشياء الإباحة ، وأنه ليس هناك محرم إلا ما قام الدليل الشرعي على تحريمه . وتحريم بعض الأشياء على الإنسان لم يكن للتضييق عليه وحرمانه منها ، وإنما ابتلاء له ، ليُرى هل يستجيب لأوامر الله ونواهيه أم لا ، ولأن المحرمات تضر بصحته ، ولا تصلح لتكون غذاء له ، أو لأسباب أخرى مادية أو معنوية ، اقتصادية أو نفسية . ولو أن العلماء وقفوا على خصائصها وتوصلوا إلى المعرفة الدقيقة لتكوين الإنسان وحاجاته ، ولم يتأثروا بأهوائهم وعاداتهم لجعلوها محظورة . ولهذا كانت شريعة القرآن مبنية على أساس إباحة الطيبات النافعة وتحريم الخبائث الضارة :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ . . ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

ولم يكن بعزيز على الله أن يجعل الإنسان بغريزته ممتنعاً عن المحرمات ، كالحيوانات التي تمتنع بالغريزة عما لايتفق مع بنيتها وأجهزتها ، فترى بعضها يتغذى بالأعشاب ويعرض عن اللحوم ، وبعضها الآخر يقتصر على اللحوم ولا يتناول الأعشاب ، وهي تجتنب ما يضر بجسمها ولا يصلح لتغذيتها في الحالتين : ولكن الإنسان منح العقل والحرية بدلاً من تقيده بالغريزة ، وطلب منه أن يمتنع بإرادته عن المحرم عليه ، تكريماً له وتحقيقاً لحكمة الابتلاء في الحياة .

ومما يدل على تسخير الكون للإنسان أيضاً :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً . . ﴾ [لقمان : ٢٠] .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ

حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل : ١٤] .

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل : ٥ـ٨] .

وانظر إلى هذه الحيوانات كيف تستأنس بالإنسان وتمكنه من الاستفادة من ألبانها وظهورها ، وانظر إلى الناقة والبقرة والفرس . . كيف تنقاد للإنسان حتى الطفل الذي يمسك بزمامها ، وهي تفوقه في القوة والجسم ، وأنى له أن يسخرها في حياته لولا أن الله جعلها مسخرة له .

ثم أليس في قوله : (ويخلق مالا تعلمون) . إشارة إلى المركبات الحديثة التي اخترعها الإنسان في عصرنا هذا ، والتي خلق الله المواد التي تصنع منها ، ومنح الإنسان العقل والعلم حتى قام بصنعها[1] .

فصح بذلك أن نعدها من خلق الله مع أنها من صنع الإنسان .

وفي ذلك أيضاً قوله : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝٧١ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس : ٧١ـ٧٣] .

وقوله : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢

---

(١) في ظلال القرآن/ سيد قطب مج٤ ص ٢١٦١ ، القران والعلوم العصرية/ طنطاوي جوهري . ص٨٠ .

وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل : ١٠-١٣] .

وقوله : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾

[إبراهيم : ٣٢-٣٣] .

وما لنا نطيل بذكر الأمثلة والآيات ، والأرض كلها مسخرة للإنسان ، وما عليه إلا أن يهتدي بعلمه وتفكيره إلى مكامن الخيرات المودعة فيها :

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك : ١٥] .

بل إن ما في الكون كله مسخر للإنسان :

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية : ١٣] .

والآية تشير بوضوح إلى أن التفكير في الكون ، ومعرفة القوانين التي يسير عليها هي السبيل لكشف ثرواته واستخراج كنوزه والاستفادة من مصادر الطاقة الكامنة في أرجائه .

وبذلك لا تكون العلاقة بين الإنسان والكون قائمة على الصراع والتحدي كما تصورها الحضارة الغربية ؛ إذ تفسر كل كشف علمي ، وكل عمل يتمكن فيه الإنسان من الاهتداء إلى بعض السبل للاستفادة من ثروات الكون المخبوءة فيه بأنه قهر للطبيعة وانتصار عليها . وتلك الحضارة لازالت متأثرة بأسطورة « بروميثيوس »[1] سارق النار ، ولهذا وقر في

---

(١) بروميثيوس : إله المعرفة والنار في الأسطورة اليونانية ، علم الإنسان أن يستخدم النار=

نفوس أصحابها أن الله أو الآلهة لا يحبون الخير للإنسان ، ولا يحبون له المعرفة بصفة خاصة ، وإنما تؤخذ المعرفة اغتصاباً من الآلهة ، ويتحقق الخير على كره منها وعداء . ووقر في خلدهم أن الجهل والعجز هما اللذان يخضعان الإنسان لله ، فإذا زادت معرفته وقوته فلا موجب لفكرة الله وما يرتبط بها من عبادات . يقول « جوليان هكسلي » :

« إن الآلهة والملائكة والجن والأرواح من عمل الإنسان ، وناشئة عن نوع من الجهل ودرجة من العجز أمام بيئته الخارجية . وبإحلال المعرفة محل الجهل ، وزيادة سيطرة الإنسان على بيئته نتيجة لتفكيره يتلاشى الإله كما تلاشى الشيطان وآلهة الدنيا القديمة وجنيات الغابات والبحيرات والأرواح المحلية »[1] .

وقد أدرك بعض العلماء مؤخراً خطورة هذه النظرة ، ونادوا بضرورة التوافق والانسجام مع الكون بدلاً من القهر والسيطرة . يقول « رينيه دوبو » : « ولن نستطيع تغيير العالم مالم نبعد عن ذهننا الجماعي الفكرة القائلة : إن أهداف الإنسان هي قهر الطبيعة . وإخضاع العقل الإنساني والوصول إلى هذا الموقف البديل ليس أمراً سهلاً ، ففكرة العمل للسيطرة على الطبيعة وقيام تنمية غير محدودة تشيع جواً مثيراً يكاد يكون مسكراً ، بينما الإيحاء بالاقتراب من حالة الاستقرار يخلق حالة من الخمول ، لذلك لن نستطيع تغيير أساليبنا ما لم نبنِ أخلاقاً اجتماعية جديدة بل ديناً

= في الصناعة ، ويتخذ من المعرفة قوة تضارع قوة الأرباب ؛ فأمر زيوس أن يسمر على جبل القفقاز ، فيقتات عقاب من كبده طول النهار ، فإذا جن الليل عادت سليمة . ثم أنقذه هرقليس في نهاية الأمر [العوا/ التجربة الفلسفية ص ٨٠١ ، سلامة/ معجم الأعلام في الأساطير اليونانية والرومانية . مصر : دار الفكر العربي ، ١٩٥٥ ص ١٠٠-١٠١] .

(١) جوليان هكسلي/ مرجع سابق ص ٢٢٣ .

اجتماعياً جديداً . ومهما كان شكل هذا الدين الجديد يجب أن يكون أساسه تناسق وتوافق وانسجام بين الإنسان والطبيعة بدل الميل المتهور للإخضاع والسيطرة »[1] .

غير أن التسخير والتمكين والتذليل لا يحصل إلا وفق سنن ثابتة ونظام لا يتغير ، فمن اكتشفها استطاع أن يستفيد من خيرات الكون بسهولة ويسر ، ومن جهل بها وجد الأبواب موصدة أمامه ، ومع أن اكتشاف هذه السنن متاح للمؤمن والكافر لأنه منوط بالعلم والتفكير ، لكن المؤمنين الذين خضعوا في حياتهم لشريعة الله ، ونظموا علاقاتهم فيما بينهم وبغيرهم من الناس والكون كله على أسسها ومبادئها هم أكثر قدرة على التكيف مع البيئة التي تحيط بهم والاستفادة منها على الوجه الأكمل والمحافظة عليها ، وهم على توافق مع الكون ، ولا يحدث أي صدام بينهم وبينه ، لأنهم يعملون بالشريعة المنزلة من خالق الكون وواضع سننه وقوانينه . ونتيجة لذلك فإن البركة تعمهم والخيرات تفيض عليهم . قال الله في أهل الكتاب :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٦٦] .

وقال في الناس جميعاً :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

أما المعرضون عن شريعة الله ، فمهما أوتوا من العلم ومهما جمعوا من المال فإنهم لا يجدون البركة في أموالهم ولا السعادة في حياتهم ، بل

---

(١) رينيه دوبو/ إنسانية الإنسان ؛ تلخيص نبيل الطويل(مجلة حضارة الإسلام .ـ دمشق عدد ٤ سنة ١٩٧٩ ص ٣٧) .

تفر الأموال من أيديهم ، وتذهب نفوسهم حسرات عليها ، وتراهم يعانون من الشقاء والمنغصات حتى يلقوا مصيرهم : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٤] .

والقرآن يوجه الإنسان إلى الاعتدال في الاستفادة من ثروات الكون ، ويحذره من الإسراف في مأكله ومشربه وملبسه وشأنه كله :

﴿ ۞ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف : ٣١] .

كما يحذره من الجري وراء الطيبات والشهوات . وفي ذلك آيات عديدة منها : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : ١٤-١٥] .

فالأموال ما هي إلا وسيلة لبلوغ السعادة الأبدية ، والشهوات ما هي إلا إغراء ليقوم الإنسان بما عليه من تكاليف لبلوغ تلك الغاية . وهي مهما كثرت ضئيلة بالمقارنة مع ما أعد للمتقين في الآخرة : ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الشورى : ٣٦] .

غير أنه ليس من الجائز اتلاف المال ولا تحريم الحلال والامتناع عن الطيبات التي هي ضرورية لحياة الإنسان : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [المائدة : ٨٧] .

فتحريم الطيبات هو عدوان على حق النفس فيها ، وحرمان لها من الزاد الذي تحتاج إليه لتقوم بما أنيط بها من التكاليف .

والقصد والاعتدال في استخراج ثروات الكون والاستفادة منها هو السبيل لحل مشكلة تلوث البيئة ومنع الاستغلال والعدوان .

وهذه النظرة يجب أن تجعلها التربية إحدى منطلقاتها ، وبها تتحدد أهدافها[1] .

ثالثاً : الحياة في القرآن

الحياة هي العمر الذي يعيشه الإنسان في هذه الدنيا . والله هو الذي وهبه إياها وقدر أمدها : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [فاطر : ١١] .

ولا يمكن أن تنبثق الحياة بنفسها . وقد خابت جهود العلماء في إيجاد أبسط أشكال المادة الحية من العناصر الكيميائية التي تدخل في تركيب الأحياء ، بل إن التعمق في دراسة الخلايا الحية جعلهم يدركون بأن سر الحياة لازال أمراً خفياً يدعو إلى الإيمان والخضوع للحي القيوم .

وبذلك يبدو بطلان نظرية النشوء والارتقاء التي حاولت أن تفسر وجود الحياة نتيجة للتفاعلات الكيميائية في ظروف مواتية . وقد أنهى الأستاذ « ويلسون » عميد علماء الخلايا كتابه عن الخلية بقوله :

« يبدو أن دراسة الخلية قد وسعت ـ بدل أن تضيق ـ الفجوة الكبيرة التي تفصل أبسط أشكال الحياة عن العالم اللاعضوي . والإنسان يسمع في كل مكان في عالم الأحياء ثورة ضد « دارون » ، إن مذهب « دارون » يعني أن الانتخاب الطبيعي هو الأساس الذي تقوم عليه نشأة

---

(١) محمد سعيد رمضان البوطي/ مرجع سابق ، ص ٩٢ـ١١٠ وانظر مقالة للباحث بعنوان : « أثر الإسلام في المحافظة على البيئة ومكافحة التلوث » في مجلة نهج الإسلام ـ عدد ٦٤ عام ١٩٩٦ـ ص١٠٠ـ١٠٧ .

الأعضاء والوظائف والأنواع ، ولكن هذه النظرية لم يمض عليها نصف قرن من الزمان حتى بدأت تواجه مشاكل ومتاعب كثيرة »[1] .

وقد جعل الله مدة الحياة محددة لكل فرد :

﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٤] .

وفطر الإنسان على حب الحياة . ولعل إبليس أدرك ذلك حين أغوى آدم ـ عليه السلام ـ بالأكل من الشجرة التي نهي عنها :

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴾ [طه : ١٢٠] .

والمشركون وضعاف الإيمان هم أشد تشبثاً بالحياة من غيرهم :

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [البقرة : ٩٦] .

والحياة هي الفرصة التي إن ضاعت لن تتكرر ، وخسارتها لا تعوض ومن الخير أن يغتنمها الإنسان في إنجاز المهام التي أنيطت به ؛ ولذلك أوصى النبي ﷺ باغتنامها قبل انقضائها فقال : « اغتنم خمساً قبل خمس : حياتك قبل موتك ، وصحتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك ، وغناك قبل فقرك » (أخرجه الحاكم بسند صحيح عن ابن عباس) .

والإنسان مسؤول عن حياته ، هل قضاها في الطاعة والعمل الصالح أم في اللهو وعمل السيئات :

---

(١) ول ديورانت / قصة الفلسفة ، ترجمة فتح الله محمد المشعشع ـ ط٦ ـ بيروت : مكتبة المعارف ، ١٩٨٨ـ ص٥٦٢ .

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾

[الملك : ٢] .

وقال النبي ﷺ : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن خمس : عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيما أنفقه ، وماذا عمل فيما علم »(١) .

وما الحياة الدنيا في الحقيقة إلا ممر للآخرة ، وهي دار للعمل والابتلاء ، وفي الآخرة المستقر والجزاء :

﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾

[المؤمنون : ١٥-١٦] .

والذي منح الحياة للإنسان هو الذي يتوفاه ثم يبعثه يوم القيامة :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة : ٢٨] .

ويعد حفظ الحياة من أهم مقاصد الشريعة ، وهي حفظ الدين والنفس والعقل والمال والنسل . ولذلك أبيحت المحظورات حين تتوقف الحياة على تناولها ؛ فمن كان في خطر الموت جوعاً ، ولم يجد ما يأكله سوى الميتة أو لحم الخنزير يباح له أن يتناول منها ما يبقى له حياته :

﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

[المائدة : ٣] .

كما أبيح التلفظ بالكفر إذا أكره المؤمن عليه ، وأصبحت حياته معرضة للخطر بسبب إيمانه : ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ

---

(١) رواه الترمذي عن ابن مسعود ، وهو حديث حسن .

﴿ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل : ١٠٦] .

ويعد إنقاذ الحياة من الخطر من أفضل الأعمال ، كما يعد إزهاق الروح دون حق من أكبر الذنوب :

﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٣٢] .

وما من ذنب بعد الشرك بالله هو أشد إثماً من القتل عمداً دون حق :

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٩٣] .

وقد شرع القصاص من القاتل للمحافظة على الحياة :

﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٩] .

والإنسان مكلف بالمحافظة على حياته ، ومنهي عن تعريضها للأخطار :

﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة : ١٩٥] .

وهو منهي عن قتل نفسه كما أنه منهي عن قتل غيره :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء : ٢٩] .

ولكن هذه الحياة العزيزة التي يجب على الإنسان أن يحافظ عليها ويستغلها للقيام بما عليه من الواجبات وإنجاز المهمة التي أنيطت به ، ينبغي أن يضحي بها لتحقيق أهداف أسمى منها . وبذلك تتراوح قيمة الحياة الدنيا بين حدين :

أ) فهي بالمقارنة مع الآخرة أو بالنظر إليها على أنها غاية بذاتها تافهة لضآلتها وسرعة انقضائها ولما يشوبها من منغصات . وحري بالإنسان ألا يغتر بها وينخدع بزخرفها . وفي ذلك آيات عديدة :

﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء : ٧٧] .

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف : ٤٥] .

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٤] .

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد : ٢٠] .

فهذه الآيات تقرر بوضوح أن الدنيا ليست إلا معبراً للآخرة ، وأنها لا قيمة لها بذاتها .

ب) ولكن هذه الحياة بالنظر إلى أنها مزرعة للآخرة ، وأن الإنسان مكلف فيها بالخلافة في الأرض ، بهذا الاعتبار لها حرمتها وقداستها . وبذلك تكون الحياة الطيبة الفاضلة لا مجرد الحياة هي التي يحياها المؤمن الصالح :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] .

وبذلك يحقق الإنسان الغاية من خلقه ، ويفوز بسعادة الدارين :

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ ﴾ [القصص : ٧٧] .

ولا يقصر همه على الآخرة ويهمل الدنيا ، كما أنه لا يجعل الدنيا غاية بذاتها وينكر الآخرة : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة : ٢٠١] .

وحين ينظر الإنسان إلى الحياة بهذا الاعتبار فإنه يحافظ عليها مادامت

خيراً له ، ولا يضيع شيئاً من وقته دون أن يستغله في العمل النافع . أما إذا تعرضت الأمة للخطر ، ووقع عدوان على الدين أو المستضعفين من الرجال والنساء والولدان فإنه يهب للجهاد في سبيل الله ، ويضحي بماله ونفسه لرد الظلم والعدوان .

والمؤمن على عهد مع الله ، وعلى أهبة الاستعداد في كل حين لتلبية الدعوة إلى الجهاد ، كيف لا وقد باع نفسه وماله لله :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١١١] .

وهو ينتظر دوره لينضم إلى قافلة الشهداء ويفوز بهذا الثمن العظيم : ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

وهؤلاء الرجال هم الذين كان قادتهم يلقون بهم الرعب في قلوب أعدائهم ، ويقولون لهم مثل ما قال خالد بن الوليد[1] لقادة الفرس والروم : « لقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

---

(١) خالد بن الوليد (٠٠ ـ ٢١هـ) : خالد بن الوليد بن المغيرة القرشي المخزومي ، كان أحد أشراف قريش في الجاهلية وقائد فرسانهم في الحروب . أسلم سنة ٧هـ وشهد غزوة مؤتة وفتح مكة ، وهدم العزى ، وكان على مقدمة بني سليم في غزوة حنين . وأرسله أبو بكر الصديق إلى قتال المرتدين ، ثم ولاّه حرب فارس والروم ، وفتح دمشق . قال فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « نعم عبد الله أخو العشيرة خالد بن الوليد ، سيف من سيوف الله سله الله على الكفار » .
(رواه أبو زرعة عن أبي بكر) [العسقلاني/ الإصابة ، ج١ ص ٤١٢ـ٤١٥ ، ابن عبد البر/ الاستيعاب ج١ ص ٤٠٥ـ٤٠٩] .

وهذا هو السر في انتصار المسلمين في المعارك التي خاضوها وقهرهم لأعظم امبراطوريتين في ذلك الحين ، وتقدمهم في كل اتجاه دون أن يقف في وجههم عائق .

ولقد أساء بعض الناس فهم حقيقة الحياة : فمنهم من اقتصر في النظر إلى حدها الأول ، فلم يعرف لها قيمة ، ورضي بالسكنى في البوادي وكهوف الجبال بعيداً عن الإنس والعمران ، وقعد ينتظر الموت ويمني نفسه بالسعادة في الآخرة ، دون أن يتحمل شيئاً من مسؤوليات الحياة ، أو يشارك في شيء لبناء الحضارة . ولو كان الناس جميعاً بهذا الشكل لخربت الدنيا ، ولتعطلت سبل الحياة .

ومن الناس من غالوا في قيمة الحياة ، ولم يرجوا لقاء الله ، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، وغفلوا عن الآيات التي تحدد قيمة الحياة والغاية منها ومهمة الإنسان فيها ؛ وهم في هذه النظرة إلى الحياة لا يختلفون عن المشركين الذين زعموا أن الموت نهاية الحياة ، وأنكروا الآخرة دون دليل : ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [الجاثية : ٢٤] .

والفلسفات التربوية المعاصرة في النظم المادية تجعل علاقة الإنسان بالحياة علاقة متعة واستهلاك وصراع من أجل المتعة . ونتيجة لذلك أصبحت الوظيفة الرئيسة للتربية هي إخراج الإنسان المنتج المستهلك . ومع أن هذه التربية قد نجحت إلى حد كبير في رفع كفاءة الفرد الإنتاجية والاستهلاكية ، إلا أنها لم تنجح في توفير المتعة المنشودة له ، وسببت له مشكلات وأخطاراً بيئية واجتماعية وسياسية تنذر بتدمير البيئة المحيطة به وتدمير حياته[1] .

---

(١) ماجد عرسان الكيلاني/ مرجع سابق ص ١٨٢ ، ١٩١ .

وهذا ماجعل العلماء الكبار يدعون إلى إعادة النظر في غاية الحياة وحقيقتها . يقول « جوناس صولك » مكتشف البنسلين ومدير معهد « صولك » للدراسات البيولوجية في كاليفورنيا :

« تدور اهتمامات الإنسان حول تفاصيل الحياة اليومية المتعلقة بالرغبات أكثر من الصورة الكلية للحياة نفسها ، فما زالت تسيطر عليه قضايا المرض والصحة ومتع الحياة ونعومتها الملائمة لكل عمر وحقبة . إن الإنسان لم ير بعد أهمية فهم غاية الحياة وغاية وجوده كفرد وجماعة ، وفهم مكانته في مجرى تطور الموجودات كلها . وحين يفعل ذلك فسوف يفهم طبيعته ، وسوف يبتكر الوسائل اللازمة للتعامل مع الحياة كجزء من عملية الحياة نفسها ، وليس كمشكلات وقضايا يسعى لتجنبها أو محوها »[1] .

والإنسان يعلم أن حياته قصيرة مهما طال عمره ، فحين يؤمن بالبعث والنشور ، ويعتبر الموت سبيلاً للدار الآخرة ، ويعلم أن ما عمله في حياته يجده في تلك الدار ، فإنه يشعر بالطمأنينة ، ويفوز بالسعادة وهو يقوم بما خلق لأجله دون أن يتبرم بالحياة لضيق ألمَّ به ، أو يتشبث بها للذة نال منها . أما حين يجحد اليوم الآخر ويقصر همه على الدنيا ، فإنه يحتار كيف يقضي هذه الحياة القصيرة ، وماذا يعمل ليفوز بالسعادة . وقد يظن أن السعادة تأتي لأصحاب الثروات الطائلة ، ويفوز بها الذين يسكنون في القصور الفخمة بين الحدائق الغناء ، ويجهزونها بالأثاث الفخم والأجهزة الكهربائية التي تسهل عليهم قضاء حاجاتهم . أو يظن أن السعادة في ركوب السيارات القوية التي تسابق الريح ، والذهاب إلى المتنزهات الجميلة والشواطىء المشهورة ومشاهدة الآثار والمناظر التي تأخذ

---

(١) ماجد عرسان الكيلاني/ مرجع سابق ص ٢٥٧ـ٢٥٨ .

بالألباب ، أو أنها في حضور الحفلات الماجنة ، والاستمتاع بالموسيقا والغناء ، ومعاشرة الحسناوات أومعاقرة الخمر وتناول المخدرات .

ولكنه ما إن يصل إلى شيء مما كان يحسب السعادة فيه حتى يجد نفسه كمن يسعى وراء السراب في هاجرة الصحراء .

وسرعان ما يشعر بالسآمة والملل . أما إذا حرم مما يصبو إليه فإنه يقضي حياته في البؤس والشقاء . وهو في الحالتين قد يعاني من الضيق والضجر ، مما يجعله معرضاً للإصابة بالأمراض النفسية والعصبية أو العقلية أو أنه يضع حداً لحياته ويقدم على الانتحار .

وما أكثر العيادات النفسية والجسمية في ربوع أوربا وأميركا ، وما أكثر المرضى الذين يتلقون فيها العلاج دون أن تتحسن صحتهم ، لأن الأسباب التي أدت إلى إصابتهم لاتزال محيطة بهم ، ولا يجدون مخرجاً إلا بمغادرة الحياة . وأعداد المنتحرين ترتفع بشكل مذهل من عام إلى آخر ، وخاصة بين الأثرياء المترفين في الولايات الأمريكية والدول الإسكندنافية التي يرتفع فيها دخل الفرد أكثر من سائر بلدان العالم ، وليس هناك أي ضائقة مادية يعاني منها أولئك المنتحرون . وهناك من استغل هذه الظاهرة في اختراع وسائل حديثة لطيفة ومريحة للتخلص من الحياة ولم يعد العاملون في مجال الطب والعلاج يكترثون بهم .

تقول السيدة : « إميلي براملت »[1] وهي تروي موجزاً عن حياتها وآلامها قبل أن تفيء إلى ملاذ الإسلام : « لقد ذهبت إلى الطبيب النفساني

---

(١) إميلي براملت: امرأة امريكية معاصرة ، بحثت عن الحقيقة منذ كانت طفلة صغيرة ، فاهتدت إلى الإسلام. وتعلمت العربية لتفهم القرآن الكريم ، واحتملت الطرد من بيت والديها والسفر والغربة لهذه الغاية . ثم تزوجت من شاب مسلم كان طالباً في أمريكا [إميلي براملت/ أمنت بربكم فاسمعون. . ط٣ .ـ دمشق : دار الفكر ، ١٩٨٦] .

التابع للجامعة ، فقالت لي الممرضة : إن مواعيده قد ملئت لمدة ثلاثة أسابيع ، ثم سألت : أأسجل اسمك في الدور؟ فقلت لها : لا تسجلي ، فإما أن تتغير الظروف التي لا أطيقها ، وإما أن تحل المشكلة عن طريق الانتحار . فكانت ممتنة لهذا التسهيل مني لأن الطبيب مشغول جداً »[1] .

وعدا عن ذلك فإن الجحود بالآخرة يجعل الإنسان لا يشعر بأي وازع يمنعه من أكل أموال الناس بالباطل والعدوان عليهم وفعل ما تسول له نفسه الأمارة بالسوء . ولو أضر بغيره من الناس ولا تستقيم الحياة ولا يمكن إصلاح الناس وتربيتهم على أسس قويمة إلا في ظل الإيمان .

* * *

(١) إميلي براملت/ آمنت بربكم فاسمعوني ط٣ دمشق : دار الفكر ـ ١٩٨٦ ص ٧١ ، البوطي/ منهج الحضارة الإنسانية في القرآن . ص ٦٤ـ٨٩.

obeikandl.com